Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن الكاتب الذي شرح بعض الغريب، ترك غريباً آخر بلا شرح، فشوّش تمام الفهم لروايته من قرّاء غير مغاربة أمثالي.

ومن سمات الحداثة في هذه الرواية التجريب، والبعد عن التفلسف، والنفور من التنظير، على الرغم من وجود بعض العبارات الفلسفية في الرواية، التي كانت تجيء ملتحمة بالنسيج، فلا تبدو نشازا أو وعظاً أو إثقالاً لمتعة القراءة والتتبّع. وهي عبارات تشف عن فكر الكاتب وروحه، ورؤيته للناس والحياة معا". ومما قاله بطل الرواية: "لقد بحثت عن لعبة الحياة ورمزها لا عن حقيقتها، عن الغامض واللغز، لا الواضح والبسيط، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب، لا الماء". وكذلك قال: "ربما أجمل العيش وَهْمهُ" ورأى أنّ: "المرآة التي تتعرّى نموذجاً لا تثير شهوة الرسّام لأن الفن يبتلعها" وأفاد: "أنّ مهمة الفن أن يجمّل الحياة".. وقال: "ينبغي ألاّ نثق كثيراً بالسعادة، إنه آنية هاربة منفلتة كلما أردنا القبض عليها". ولاحظ أن "الفقر فوق القانون" وكان بهذه العبارة الأخيرة كأنه يستعيد ما أثر عن الجوع والفقر في تراثنا ، فقد روى عن أبي ذر قوله : "عجبت لمن يكون جائعاً ولا يجرّد سيفه".

الصعلكة وحضورها في القص:

والحقّ أن هذا الكاتب الذي عضّه الجوع، بأسنانه الحداد، في طفولته ويفاعته، وحتى في شبابه، قد رسم في سيرته الروائية حياة الصعلكة رسماً دقيقا ومثيراً ومحزنا ومدهشاً معاً. فالعبارة الأولى في رواية "الخبز الحافي" كانت ترشح بالبكاء والموت والجوع والحرب، فقد افتتح الكاتب نصّه بقوله: "أبكي موت خالي، والأطفال من حولي، يبكي بعضهم معي. لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحد أو حين أفقد شيئاً. أرى الناس أيضاً يبكون. المجاعة في الريف. القحط والحرب"- (الخبز الحافي ص٩).

إنّ الموت قد مثّل موضوعاً "بارزا" في الروايتين، فقد مات الخال في البداية، ومات الأخ خنقاً بعد قليل، خنقه الأب الشرير المجنون، وماتت الأم، وقبلها مات الأب، ومات أناس كثيرون، منهم من عرفه الراوي، ومنهم من لم يعرفه. ولكثرة الموت وقوّة وقعه على روح الفتى، صار الحبّ، وهو أجمل لحظات العمر، يذكّر بالموت، يقول الكاتب ذات مرة: "جلستُنا. فكّرت في الموت. الحبّ دائما يجعلني أفكر في الموت"- (الخبز الحافي ص١٤٥). والسؤال هنا: هل كان حبّ الراوي لأخيه البريء، وموته أمام عينيه، بيدي أبيه، وراء هذه